الرؤى والمعارج في آداب الشرق القديم : «سفر أخينوخ» نموذجا

عبدالرحيم حيمد
كلية الآداب – أكادير

مقدمة

تزخر معظم آداب الشرق القديم بنصوص تصف رؤى ومعارج، ارتقى أبطالها حجب السماوات والأفلاك، وخاضوا أعماق البحر، وغاصوا في غياهب الأرض، يجالسون قوى الخير، أو يصارعون قوى الشر. وهم يصفون دقائق أسفارهم ، وسبل اتصالهم بعوالم لا مرئية تفعل في الأرض وفي السماء. ولم تكن هذه الآداب حكراً على أمة أو حضارة مخصوصة دون أخرى ، بل هي آداب يكاد الباحثون يجزمون باشتراك كل حضارات الشرق، والحضارات المتاخمة لها، في بناء صرحها، وتثبيت مضامينها ورموزها.

وإذا كانت الدراسات حول الشرق وحضاراته قد كشفت عن حضور موضوعة الرؤى والمعارج في الحضارات البابلية والآشورية، وكذا في الحضارة المصرية القديمة والأوغاريتية، فإن إجماع الدارسين حاصل حول أهمية هذا الموضوع في الديانات التوحيدية التي انبثقت من أرض الشرق، ومنحت أهمية قصوى للرؤى النبوية والمعارج الروحية. ونص اخينوخ، موضوع هذه المداخلة، هو جزء لا يتجزأ من هذه الآداب، يشهد على وجود بنى مرجعية في ثقافات الشرق القديم، ما فتئت تتجدد، وتتحول دون أن يطال بناها الدالة الملتحمة تغيير يُذكر.

ودراسة وتحليل هذه البنيات العميقة مشروط بامتلاك أدوات مختلفة ومتنوعة، تمتد من الإحاطة بالميثولوجيا القديمة إلى الأنتربولوجيا، ومن فقه اللغة المقارن إلى علم الأديان وشعائرها، ونظم التفسير فيها، ومن تاريخ الأفكار العام إلى الهيرمينوطيقا.

ويقع تصنيف هذا السفر، عادة ، ضمن أسفار الأبوكريفا، إذ ينتمي إلى الفترة الأخيرة من العصر القديم، ويعبر عن منظومة الغنوص والعرفان، التي هيمنت على ثقافات الشرق خلال هذه الفترة. ولذلك تقدم الروايات المختلفة، التي ورد من خلالها هذا السفر، وكذا جملة التنويعات الطارئة على بناه السردية، ومكوناته الرمزية، العناصر الكبرى للعرفان أو الغنوص، باعتبار أن هذا الأخير نظام معرفي ومنهج في اكتساب المعرفة. وباعتبار أنه شكل أيضاً رؤية للعالم وموقفاً منه. فقد انتشر الغنوص في الشرق القديم، قبل أن ترسخ اليهودية أسسه الكبرى، وانتقل لاحقاً إلى النصرانية، ثم إلى الإسلام من خلال قنوات ومسالك شكلت مصر وسوريا وفلسطين قواعدها الكبرى.

تنبع أهمية هذا السفر بالأساس من طبيعة الموضوعات المطروحة فيه، والقضايا الكبرى التي تثيرها مضامينه :

1- فهو نص يتحدث عن غواية الملائكة وسقوطها على الأرض. وتلك موضوعة داولتها الأدبيات الدينية التوحيدية الثلاث.

2- صعود أخينوخ إلى السماء، ووصفه لفضاءاتها ولساكنيها. وهو ارتقاء لغايات، تخللته رؤى وأخطار، وأفكار وصلوات.

3- وصف الألوهية، ووصف العرش والموكلين بخدمته.

4- تثبيت موضوعات الآخرة وجهنم والجنة، وترسيخ مفاهيم الثواب والعقاب.

وتتناول هذه المداخلة نص سفر أخينوخ بالدرس والتحليل، باعتباره مصدراً من مصادر العرفان التي ظلت حاضرة في الفكر الإنساني اللاحق، مشكلة مرجعية

لتيارات فكرية مختلفة، اخترق معظمها علوم التفسير، ومجالات الفلسفة والتصوف، وعلم التنجيم والكيمياء والسحر، سواء في الفكر اليهودي، أم في الفكر المسيحي، أم الفكر الإسلامي خلال العصر الوسيط. وهذه أهم النقط التي سنسعى إلى بسطها في هذا السياق :

I- شخصية أخينوخ في المصادر الدينية التوحيدية.

II- سفر أخينوخ : المصادر والدراسات.

III- مضامين السفر الرئيسة.

IV- المجتمع الملائكي : بنى النظام وعلل انصهاره.

V- أخينوخ في منظومة العرفان الإسلامية.

I- سفر أخينوخ : المصادر والدراسات.

1- في المصادر الدينية التوحيدية

تعرض التوراة لعلمين اثنين يحملان اسم حنوخ أو أحينوخ (بمعنى الجدة، والتدشين والفتح) أولهما هو حنوخ بن مدين، أي حفيد إبراهيم الخليل من زوجته قطورة[1]. أما الآخر فهو حنوخ بكر رأوبين أول أبناء يعقوب[2]، وإليه ينسب سبط رِأوبين[3]. ويجعل **العهد العتيق** منه أحد الآباء الذين بشروا بمجيء الطوفان. وينسبه التقليد اليهودي التوراتي إلى قابيل، كما يسند إليه تأسيس مدينة تحمل اسمه[4]. وتضعه سياقات أخرى في العهد نفسه ضمن نسل شيت باسم حنوخ، وإينوش بن يرد، وأبوماتوشاليم[5]. وهذا ما يجعل منه حلقة في جينيالوجيا المسيح حسب رواية لوقا النصرانية[6]. ويجعل **العهد العتيق** من خنوخ شخصية بطولية قدر لها أن

(1) **سفر التكوين الإصحاح** 25-4. "وبنو مدين هم عيفة، وعفر، وحنوك، وأبي داع، والدعة. وجميع هؤلاء بنو قطورة".

(2) **المصدر نفسه** 46-9. والخروج 6-14 "وبنو راوبين : حنوخ، وفلو، وحصرون وكرمي".

(3) **سفر العدد** 26-5. "بنو راوبين : أحنوك عشيرة الحنوكيين".

(4) **سفر التكوين** 4-17. "وضاجع قايين امرأته، فحملت وولدت حنوك. وولد لحنوك عيراد...".

(5) **سفر التكوين** 5-6-21. "وعاش آدام بعدما ولد شيتا ..وعاش شيت ..وولد أنوش .."

(6) **لوقا** 3-37. "وكان يسوع..ابن يوسف..بن سام ..بن متوشالح بن أخنوخ.."

تحيى 365 سنة على الأرض، قبل أن يتم ارتقاؤه إلى السماء[7]. فقد سار أخينوخ مع الله، يقول النص، واختفى لأن الله رفعه إليه. تحولت سيرته إلى أقدم رمز يحيل على المعراج، وعلى كشف أسرار السماوات. وتعكس النصوص المتأخرة في **العهد القديم** هذا التحول كما تعكسه في الآن نفسه نصوص **العهد الجديد**[8] وأدبيات الأبوكريفا[9] التي يعتبر **سفر اخينوخ** أحد أهم أسفارها. لنشر كذلك إلى أن الفكر الإسلامي وخاصة كتب التفسير قد عرضت لهذه الشخصية، وماهت بينها وبين شخصية إدريس الواردة في القرآن الكريم[10]. والتي نسب إليها في التصور الإسلامي[11] صحف ومعارج نعثر على بعض مكوناتها في **سفر أخينوخ** سواء في صيغته الواردة في الأبوكريفا أو في صيغه بالرواية الإثيوبية ذات الأصل الآرامي.

2- مصادر ودراسات

وإذا نحن تجاوزنا الإشارات النادرة التي وردت عن هذا المؤلف سواء في النصوص الدينية التوحيدية، أم في بعض مؤلفات أعلام الكنيسة، وكذا الشذرات الواردة في الأبوكريفا، فإن الفضل في إعادة اكتشاف هذا النص يرجع إلى المدرسة الاستشراقية الألمانية[12]. فقد تمكن بروش سنة 1773 م من العثور على

---

(7) **التكوين** 4-23-24 "فكانت كل أيام أخينوخ 365 سنة. وسلك أخينوخ مع الله، ثم توارى لأن الله أخده إليه".

(8) العبريون 9-5. "بالإيمان رفع الله أخينوخ من غير أن يرى الموت .."

(9) "الابوكريفا" : Apocryphes هي نصوص أسفار منتحَلة، لم يُعترف بشرعيتها في إطار أسفار **العهد القديم** العبرية. ويسمي البروتستانت بالابوكريفا كل الأسفار الملحقة **بالعهد القديم** في صيغته السبعينية، أي الترجمة اليونانية لهذا **العهد**. ومن أهم نصوصها : رؤيا باروخ القيامية، وسفر أخينوخ، وسفر المقابيين الأول والثاني، ورؤيا إشعيا، بالإضافة إلى ثمانية عشر مزموراً من مزامير داود الواردة فقط في الترجمة السبعينية.

(10) – سورة مريم، آية 56 : "واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً".
– سورة الأنبياء، آية 85 وإسمعيل وذا الكفل كل من الصابرين".

(11) انظر نماذج مما ورد حول المطابقة بين أخينوخ وإدريس عليه السلام في بعض كتب التفسير : تفسير لابن كثير، وتفسير القرطبي، وكذا تفسير الجلالين.

(12) - G. V ajda: "Idris", dans Encyclopedie de l'Islam. Tome : 7, pp. 1056-1057.
- Henri Serouya : "La Kabbale". Paris. 1947. pp. 119-121.
- G. Scholem ; "Les grands courants de la mystique juive". Payot. P. 58.

ترجمة إثيوبية كاملة لهذا الكتاب، ما لبثت أن أخذت طريقها نحو الترجمة إلى اللغات الأوربية، إذ نقله إلى الإنجليزية لورانس، وأرفق ترجمته تلك بمقدمة وحواشي، أفاد منها **هوفمان** في نقله للكتاب إلى اللغة الألمانية. كما تمت ترجمته إلى اللاتينية من طرف **غفرو ترر** في العقد الرابع من القرن التاسع عشر. وتمكن **دلمان** من جمع نسخ إثيوبية، أفلح في بناء نسخة محققة ومنقحة منها غدت، بالإضافة إلى الدراسة التي أنجزها حولها، معتمد دارسي هذا السفر لاحقا[13].

وُجد إلى جانب هذه الترجمة الإثيوبية العتيقة لسفر **أخينوخ** رواية له وردت في اللغة السلافية القديمة، تُعرف بسفر **أسرار أخينوخ**. وقد أصبحت متداولة في أوساط الدارسين باسم **سفر أخينوخ الثاني**. وهي رواية يحتل موضوع الآخرة فيها المساحة الأكبر على صعيد المضامين. ورجحت بعض الدراسات أن يكون أصل هذه الرواية نص من صياغة أحد يهود فلسطين، خلال القرن الأول الميلادي. ويعتقد أنه حرره باللغة اليونانية قبل أن تتم ترجمته إلى السلافية العتيقة. وأخينوخ هاهنا شخصية تعرج على السماوات السبع، لتتلقى كشفا إلهيا يخبر عن الأزمان الآتية، وعن أسرار الملائكة، والعرش الإلهي.

وقد نبه اكتشاف سفر **أخينوخ** الإثيوبي دارسي الفكر الديني اليهودي إلى إعادة النظر في الشذرات الواردة حوله في أسفار **الأبوكريفا**، وكذا في الآداب التي ارتبطت بعصر التدوين في اليهودية. وتم العثور، في هذا الإطار، على نص ربي ينسب إلى أخينوخ ضمن ما يسمى بآداب "الهيخالوت"، أو آداب المعراج الواصفة لهياكل السماوات، والتي ترجع أهم نصوصها إلى الفترة الممتدة بين القرنين 3 و4 م. ويعكس هذا النص توجهات الفكر اليهودي خلال هذه الفترة. وقد عُرف لدى المختصين بـ"سفر **أخينوخ الثالث**". نشره السويدي **هوجو أودبيرج** سنة 1928 [14]. وتناوله بالدرس والتحليل كثير من الباحثين، يأتي في مقدمتهم **هـ. سيرويا**، **وج. فاجدا**، **وإدوارد نومارك**، وج. **شوليم**. وقد عده هذا الأخير مصدرا من أهم مصادر التصوف الأولى في تاريخ اليهودية، ومرآة لتصوف المركبا الغنوصي

(13) **المصادر نفسها**. وانظر كذلك ما ورد بخصوص ترجمات هذا الكتاب في دوائر المعارف المختلفة. مادة Henoch ، ومادة حنوخ، وكذا مادة إدريس.

(14) - Hugo Odberg : “The hebrew Book of Enoch”. 1928.

الواصف للعرش الإلهي ولأسرار السماوات السبع والملائكة على اختلاف أجناسها ومراتبها وأقدارها[15].

أما بالنسبة للمصادر الإسلامية، فنحن نجد المفسرين يتحدثون باسهاب تارة عن أخينوخ وتارة عن خنوخ، وجميعهم يقصدون بهذا الإسم النبي إدريس الوارد ذكره في آيتين مكيتين من القرآن الكريم[16]. وبغض النظر عن الدراسات التي أنجزت حول هذه المطابقة بين إدريس وأخينوخ من طرف **توري ونولدكه**، فإن شخصية أخينوخ تحولت في كتب التفسير الإسلامية وفي كتب قصص الأنبياء إلى نموذج الرائي صاحب المعراج المتميز، الذي علم الناس الكتابة والحياكة والطب، وتلقى صحفاً مختلفة، قبل أن يرتقى مدارج السماوات. وتخلط كتب التفسير أحياناً بينه وبين أصحاب معارج مشهورين، يأتي في مقدمتهم إيليا (الياس) أو الخضر[17].

II- مضامين السفر[18]

يضم الفصل الأول من السفر في الرواية الإثيوبية، وكذا الرواية العبرية الخطوط الرئيسة لمضامين نص أخينوخ، ويعرف بسياق المعارج والرؤى باعتبارهما الإطار العام لما سيرد في الفصول اللاحقة. وفيه نقرأ : "أخينوخ روحٌ عادلة، نهجت سبيل الله. فانفتحت عيناه، ورأى رؤى مقدسة، ثم ارتقى سبل السماوات. وروى ما رأى بأم عينيه، ووصف معراجه، ونقل ماروته له الملائكة. قال : كشفت لي ملائكة السماء عن كل شئ، عما سيحدث في الأجيال القادمة، إنصافاً

(15) - G. Scholem ; "Les grands courants de la mystique juive". P. 58.
"Les origines de la kabbale". Paris 1966. pp.. 29-33-114-198-493.

(16) جاء في تفسير القرطبي : "إدريس عس. أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط. وكان اشمه أخنوخ.. وكذا وقع في السيرة أن نوحاً عس. بن أخنوخ بن لامك، بن أخنوخ وهو إدريس..

(17) أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي : "**عرائس المجالس**". بيروت لبنان. ص ص. 42-46.

(18) - "Le livre hébreu d'Hénoch ou Livre des palais". Traduit de l'hébreu par Charles Mopsik. Edition : Verdier.
- "Livre d'Henoch". Traduit sur le texte éthiopien. Letouzez et Ainé. 1906.
- Jean-Jacques Wahl : "Histoires d'anges" ; dans les Nouveaux Cahiers, numéro 1998.

للصالحين والمختارين. حين سيغادر المقدس الجبار، ربُ الكون مقامه الأعلى، ويتجلى على الأرض ليمحق الشر ويهلك الظالمين. آنئذ ستهوي الجبال، وتندك أعالي الأرض بعد أن يغمر الطوفان الأديم. ويدان ساكنو البسيطة بأعمالهم. يمنح السلام للصديقين، فيشملون برحمة الرب، ويُتوج محياهم ببهاء الألوهة ونورها"[19]. يلي ذلك وصف مسهب لوضعية الكون قبل سقوط الملائكة، حين كانت مملكة السماء بمكوناتها، ومملكة الأرض بعناصرها وساكنيها تسيران لما هو مقدر لهما وفق نظام صارم لامكان فيه للفوضى. ثم حدث أن افتتنت الملائكة ببنات الإنسان، ووقع المحظور : "قالت الملائكة المفتتنة ببنات الإنسان : لنختر نساء من جنس آدم"، ولننجب منهن أبناء. قال سميازا كبيرهم : أخشى أن تحيدوا عن الطريق القويم، وأسأل بذنوبكم. رد مرؤوسوه قائلين : "لن نضل، نقسم لك". وتعاهدوا على ذلك. كانوا حوالي 200 ملاك، نزلوا في أراضي"، بمكان قرب جبل هرمون. وهذه أسماء رؤسائهم : أوراك جاراميل، عقيبئيل، تاميئيل، راموئيل، دانييل، حزقيئيل، ساراقميئل، عازائييل، أرميرز، ينرعائيل، رازائيل... وقد تزوج هؤلاء بنساء الأرض، وسكنوا اليمن، وعلموهم السحر، وأسرار جذور الأشجار. ومن ذريتهم العماليق. وقد أتى العماليق على الأخضر واليابس، ثم ارتموا على الناس والطير والزواحف والحيتان، ينهشون اللحم، ويلغون الدماء. فأنت الأرض من جبروتهم[20]. "وأدى السقوط في الغواية إلى نقل أسرار السماء إلى الأرض. وفي هذا الإطار، يعرض النص لما علمه المفتونون لأتباعهم من الإنسان : "ودرج عزازيل على تعليم الناس صنع السيوف والسكاكين والدروع وصنع المرايا، ويلقنهم سك الأساور، وحلي الزينة، واستخدام الأصباغ، وفن تكحيل الحواجب والرموش، واقتناء الأحجار. وبذلك تنامى الغي، وسلك البشر سبل الشر. أما الملاك أمارراق فقد شرع يعلم الناس أسرار وخصائص جذور الأشجار.. وساراقييل يعلمهم فن مراقبة النجوم. وعاقبييل يلقنهم فن الآثار. وتامييئل يكشف لهن فن الفلك ... وإذ صار البشر على حافة الفناء، تصاعدت شكاوى وتظلمات الصالحين إلى السماء"[21]. ثم يبسط النص تفاصيل خطايا الملائكة وأتباعهم،

---

(19) الفصل الأول من الكتاب.

(20) الفصل السادس.

(21) الفصل السابع.

ويشرع في التمهيد للعقاب، وتهيئة مقدمات تطهير الأرض بالطوفان. وتظهر إذ ذاك شخوص الملائكة الكبار الذين توجهوا للباري يتوسلون له ليقضي على الظلم والبغي والجبروت[22]. وباستجابة الرب لدعاء هؤلاء، يرسل الملك أرسيا لالور إلى الملك لامخ. ويحمله الرسالة التالية : "قل له باسمي، ولا تتبد له، واكشف له عما سيلحق به، وبالأرض حين سأغمرها بماء الطوفان. وأخبره بسبل النجاة". ثم يأمر جبرائيل بالقول : "اذهب إلى الأشرار" وابتلهم. سلط بعضهم على بعض حتى يفنوا". وأخيراً يوجه القول لميكائيل : "اعلن العقاب لسميازا، ولمن شاركه الخطايا، ممن غوى بنساء الأرض. اشدد وثاقهم سبعين جيلاً، حتى يوم الدين. ثم الق بهم في النار للأبد .... ولتقض على كل النفوس الشريرة، وعلى أتباع العتاة الفجرة ، وليُرفع الظلم، ولتُزهر شجرة العدل[23].

أما أخينوخ الذي كان يعيش في الأرض آنئذ، فقد رفع إلى السماء قبل أن يتحقق عقاب المفسدين. ورفعه ذلك سيقود إلى تتويجه كاتباً للباري ورسولاً إلى العتاة من الملائكة وأتباعهم : "أنا أخينوخ .. جعلني الرب كاتباً، وقال لي : أخينوخ كاتب العَدل، اذهب إلى الضالين ممن غادروا السماوات العلا، ودنسوا الأرض، وغووا مع نسائها .. أبلغهم أن لاسلام لهم أبداً. سيرون بأم أعينهم أحباءهم جميعاً يسقطون ويفنون. سيتوسلون ويضرعون، ولن أمنحهم الرحمة[24].

وحين يبلغ أخينوخ رسالة ربه ، يشفق من مآل المرسَل إليهم، فيحرر رجاءهم، عسى أن يأتيهم عفو الرب. ويخبر بعد ذلك عن المصير النهائي لهؤلاء، ثم يشرع في وصف تجربة معراجه إلى السماء. وينبئ عن رؤاه، وعن مشاهدته لخزائن السماء التي تمكن من إبصارها، وتدوين تفاصيلها في كتاب سطره للصالحين قبل أن يختفي هو إلى الأبد في مملكة السماء ليصبح ملاكاً في خدمة الرب. وهو التتويج الذي وصف أخينوخ في إطاره العرش الإلهي، ومقام الألوهة في نصوص دالة. "رأيتني محاطاً بسحب كثيفة، أتأمل بوجل حركة الأفلاك والبروق، حين

(22) الفصل الثامن.
(23) الفصل الحادي عشر.
(24) الفصل الثاني عشر.

هبت رياح مواتية حملت أجنحتي صُعُداً إلى السماء إلى أن بلغت حائطاً من حجر كريم يلف لهيبٌ متقلبُ جوانبه. امتلكني الرعب، غير أني اخترقت اللهب، وولجت مقاماً رحباً مرصصاً كله بالبلور، أرضاً وحيطاناً وأسساً، سقفه نجوم سابحة، وبروق نور تُرى في وسطها ملائكة عظام في سماء مركبة. وكان هناك لهب يرج الحيطان، وباب من نار. وجدت هذا المقام حين ولجته ملتهباً كالنار، وبارداً كالثلج .ولم يكن هناك أثر ما للفرح ولا للحياة. فامتلكني رعب جارف، وارتعدت فرائصي وسقطت على الأرض مغشياً علي"[25].

III- المجتمع الملائكي : بنى النظام وعلل انهياره

1- أسماء الملائكة : وظائف ودلالات

لعب سفر **أخينوخ** دوراً رائداً في تثبيت أسماء الملائكة المتعارف عليها في الديانات التوحيدية الثلاث[26]، إذ لم يرد من أسماء الملائكة في كتب **العهد القديم** سوى أسماء رفائيل وجبرائيل وميكائيل. وورد اسم رفائيل في سفر **طوبيا**، أحد أسفار **الأبوكريفا**، وورد اسم جبرائيل في سفر **دانيال**، وفي سفر **ارميا**[27]. في حين ورد اسم ميكائيل في سفر **دانيال**. أما في **العهد الجديد** فنحن نعثر على اسم رافائيل في **إنجيل لوقا**، وعلى اسم ميكائيل في **إنجيل القيامة** أو رؤيا يوحنا. وتجدر الإشارة إلى أن التقليد اليهودي – النصراني يموقع هذه الأسماء الثلاث ضمن ملائكة سبع كبار تقف على الدوام بين يدي الخالق.

وقد قارن بعض الباحثين هذا العدد بعدد الأرواح التي يرأسها أهورا مزدا في الزرادشية، والتي تلعب في الديانة الثنوية دور المحارب لقوى الشر التي يرأسها أهريمان. ولا يمكن فهم هذا التشابه في تداول هذا العدد السري من دون الرجوع

(25) الفصل الرابع عشر.

(26) Andre Marie GERARD -. E. Robert Laffont ;. "Dictionnaire de la Bible". Paris 1989. Collection Bouquins.

(27) **سفر دانيال** 3-16 "وسمعت صوت إنسان من وسط نهر اولاي ينادي ويقول : ياجبرائيل فَهم الرجل هذه الرؤيا".
9-21 "إذا بالرجل جبرائيل الذي رأته في بداءة الرؤيا طار سريعاً، ولمسني في وقت تقريب التقدمة لله عند المساء".

إلى نصوص **الأبوكريفا**، وخاصة سفر **اسيدراس**، وكذا سفر **أخينوخ**، موضوع دراستنا، ودون أن نغفل الإشارة، في هذا السياق، إلى جملة من نصوص ربية مختلفة حول الملائكة.

والسفر يعرض في ثناياه، وبالموازاة مع أسماء الملائكة الغاوين أسماء الملائكة الطائعين. فهو يعرض لملائكة الفصول الأربعة، ولملاك الشمس، وملاك القمر، وملائكة الفصل في النزاع بين الكروبيم، قبل أن يشرع أخينوخ في وصف ما رآه خلال معراجه عن الملائكة الكبار القائمة بالخدمة أمام العرش. والمحرر يحصر عددها في سبعة، يتقدمهم أربعة رؤساء. يقول : "وطلبت من ملاك السماء الذي كان يرافقني أن يريني ما خفي واستتر هناك، ولذلك سألته عن هذه الوجوه الأربعة التي رأيتها، وسمعت لقولها ودونته. فكان الجواب : الوجه الأول لملاك رحيم حليم هو ميكائيل، والوجه الثاني لرفائيل الموكل بالأدواء جميعها، وبجروح الصبية. أما الوجه الثالث فهو الموكل بالقوة والجبروت، إنه جبرائيل. وأخيرا فإن الوجه الرابع هو رئيس التوبة والتوابين، وأمل من سيرث الحياة الآتية واسمه ينانوئيل"[28]. ويجعل صاحب السفر في آخر عدد الملائكة الكبار سبعة تخضع أسماؤهم في بنائها لإسناد اللاحقة إيل المقيدة لاسم الجلال إلى جذر لغوي، يحدد معناه وظيفة الملاك المعين أو اسمه. وهذه أسماء الملائكة الكبار كما وردت في النص :

1- أورييل : من الملائكة المقربين، وهو القائم على عالم.
2- رفائيل : من الملائكة المقربين، وهو موكل بأرواح البشر.
3- راكوئيل : من الملائكة المقربين، وهو موكل بعقاب المذنبين من أبناء السماء.
4- ساراقئيل أو سارييل : من الملائكة المقربين، وهو موكل بأرواح أطفال بني آدم.
5- ميكائيل : من الملائكة المقربين، وهو الحارس الأمين للثقاة والصديقين.
6- جبرائيل من الملائكة المقربين، وهو موكل بالجنة والتنانين والكروبيم.
7- رامئيل من الملائكة المقربين، وهو موكل بالحشر والمبعوثين[29].

---

(28) - "Livre d'Henoch". Traduit sur le texte éthiopien. Letouzez et Ainé. 1906. chap 40.

(29) **المصدر نفسه**. الفصل 20. ص ص. 1-8.

2- مجتمع الملائكة : السمات والخصائص(30)

يقدم سفر أخينوخ صورة مفصلة عن مجتمع الملائكة، وكذا عن طبيعة العلاقات التي تربط بين أعضائه، والنظام الذي تخضع له هذه العلاقات، وتتحدد بمقتضاه الصلات بين أفراده وجماعاته(31).

يقوم هذا المجتمع السماوي على نظام مطلق، يوجد على قمة هرم السلطة فيه الباري المتربع على عرش مجده. وأسفل هذا الهرم مملكة تراتبية، تتألف من رؤساء ومرؤوسين، تقوم على خدمة العرش، وتضطلع بمهام محددة ودقيقة في فضاءات السماوات السبع. و يسود هذه المملكة انسجام تام، وتحكمها طاعة لامكان فيها للعصيان. ورؤساء ومرؤوسون، عساكر وعسس، كتبة وخزنة مختلف خلقهم، ومختلفة وظائفهم ومسؤولياتهم. وغايتهم، رغم الاختلاف بين مراتبهم وطبقاتهم، الحرص الدائم على نظام الملكوت السماوي، وحفظه من مختلف الأخطار الداهمة، التي قد تعتر توازنه أو تخل بسيره. وعلى الرغم من أن هذا المجتمع يبدو، لأول وهلة، نموذجاً للنظام الأمثل المحصن ضد التغيير، فإن أحداثاً ستقلب العلاقات فيه رأساً على عقب، لتنهار التراتبيات الملائكية، وتتفجر بنى هذا المجتمع، بل إن التغيير سيقود إلى أكثر من ذلك، حين سيطرح السؤال بقوة حول مصدر السلطة ذاتها، وحول العدل والدينونة.

إن المجتمع الملائكي الموصوف في سفر أخينوخ مجتمع مغلق. لامكان فيه البتة لغير الملائكة. لايسمح بولوجه، بل ولا الدنو منه. فالملائكة جميعها مؤهلة للتربص بالمتسللين إلى السماوات وإهلاكهم دون رحمة. وقد يقود هذا التربص إلى التماس ببني البشر، وحينها يعدو من دُنس من هذه الملائكة إلى نهر من نار

---

(30) Jean-Jacques Wahl : "Histoires d'anges" ; dans, Les Nouveaux Cahiers, numéro 1998 -

(31) نسترشد في بناء التحليل أعلاه بدراسة لشارل موبسيك حول التراتبية الإجتماعية في المملكة السماوية. وهي دراسة موسعة تمحورت حول مفهوم أساس هو : "La Sociurgie". يقول عنه موبسيك :

"La Sociurgie est un néologisme.., il signifie la capacité magico religieuse de créer du social. Il répond bien sur à la "théurgie" ou art de créer du divin des neoplatoniciens paiens de l'antiquité tardive". Charle Mopsik : "Hiérarchie des anges et hiérarchie sociale". Rapport pour la tables ronde N° 2 du congrès de l'Association des sciences politiques, année 1990 (Thélogie et politique).

يتطهر فيه. وهذا المجتمع المكرس لتمجيد بارئه لا يتردد في عقاب كل من سولت له نفسه تلقين أو إفشاء الأسرار السماوية لغير أهل السماء . ذلك ما تعرض له الملاك عزازيل. لنلاحظ في هذا الإطار، أن لكل ملاك وظيفته مخصوصة، هي علة وجوده، يقوم بأدائها في إطار سلطة تراتبية هي أشبه بالنظام العسكري (نموذج مرؤوسي الملاك قروقيال كبير الخزنة). والوظيفة، في هذا السياق، هي الميسم المميز لحشود لاتعد ولا تحصى. وظيفة قد تكون مسندة لملاك فرد، وأحياناً لجماعات من الملائكة. وإذا كانت هذه الحشود مجهولة الاسم في الغالب الأعم، فإن أسماء بعضها قد ترجع إلى طبيعة الوظيفة الموكولة إليها، وقد تكون عبارة عن أسماء مركبة من صفة إلهية مسندة إلى اسم الجلال تعكس خضوع حامليها إلى الباري. ولامكان داخل هذا المجتمع الخاضع لتراتبية صارمة للمساواة، فالملائكة تختلف مرتبة وأهمية، وعلامات التفاضل بينها متعددة، منها ما يتصل بقوة الجسم وشكله، وبعدد الأجنحة والعيون ودرجة النورانية والإشعاع. ولا مكان في هذا المجتمع أيضاً للعصيان، أو الإخلال بالنظام، فنار الرب ترسل على المخلين، تفنيهم قبل أن يتم خلق من يقوم مقامهم.

3- تتويج ابن المرأة وسقوط الملائكة : يرجع انهيار هذا النظام المنسجم إلى سببين اثنين

1- سقوط الملائكة، رؤساء ومرؤوسين، إلى الأرض، وتورطهم في الفتنة والغواية.
2- وفود غريب عن السماء إلى المجتمع الملائكي.

ولئن كانت غواية الملائكة، ونشرها الفساد في الأرض سبباً غير مباشر في انهيار النظام السماوي، كما سنرى، فإن ارتقاء أخينوخ إلى أقطار السماوات هو ما سيقلب علاقات هذا النظام رأساً على عقب، إذ شكل الاختراق المذكور مساً بأحد أهم مسلمات هذا المجتمع، وهي انغلاقيته، ورفضه للأجانب. فالملائكة تنظر إلى الإنسان باعتباره مسؤولاً عن الفساد في الأرض. والمجتمع الذي بناه الإنسان يخالف في كل شيء نظيره الملائكي : سمة الأول النقصان، وسمة الثاني الكمال، تعم الأول الفوضى، ويسود الثاني النظام. والملائكة أدانت على الدوام

الوجود البشري، بل لقد عارضت من قبل خلقه بالأساس. غير أن اختيار الله لأخينوخ، لصلاحه ولتقواه في زمن غوت فيه الملائكة نفسها سيقود إلى معطيات جديدة يحكمها انقلاب في الأدوار :

- تسقط الملائكة اختياراً من السماء إلى الأرض فتغوي، وتفتتن بنساء الأرض، وتنجب العماليق، وتكشف الأسرار السماوية لبني البشر.
- وأخينوخ ابن المرأة، وسليل النقصان، يرتقي سبل السماوات، ويرفض الظلم والغواية.
- ملائكة ضالة تؤصل في الأرض، ويُشد مصيرها بمصير الأرض.
- إنسان مصطفى يوطن في مجتمع ملائكي سماوي.

كان من اللازم أن تحرم الملائكة الضالة من صعود السماء ثانية، وتُوثق وتُعذب. وكان من اللازم في المقابل أن تُغير طبيعة أخينوخ ليسهل اندماجه في مجتمع السماء : غُير اسمه من أخينوخ إلى ميتاترون، وأُبدل تصفيف شعره، وأُلبس ثياباً سماوية كلها جدة، ولُقن أسرار مملكة السماء، وبذلك غدا عضواً من أعضاء هذه المملكة، بل إن النص في الرواية العبرية يتحدث عن تتويج أخينوخ رئيساً للملائكة، ووسيطاً بينها وبين الخالق، ومنذراً للضالين من العماليق، وآبائهم وزوجاتهم وأتباعهم. وبتتويج أخينوخ يزداد تعالي الباري، ويحتجب حتى عن الملائكة نفسها. وبذلك يتأصل تعالي الذات الإلهية، ويترسخ احتجابها النهائي عن الخلق أجمعه، بعد أن فوض الله لأخينوخ الرجل التقي العادل أمر المجتمع الأرضي والمجتمع الملائكي.

4- نصوص الهيخالوت أو رؤى العرش : العرفان اليهودي والواقع الأرضي

لا خلاف بين الدارسين اليوم حول اعتبار سفر **أخينوخ** من أقدم النصوص اليهودية، التي تصف المجتمع الملائكي، وتسهب في وصف العرش الإلهي. كما أن الإجماع واقع، في هذا السياق، حول انتمائه إلى الأدب الديني اليهودي، الذي تضمنته الترجمة السبعينية **للعهد القديم**. يدل على ذلك استعمال محرره للغة دينية تمتح معجمها و تستقي رموزها من مرجعيات اليهودية، ومن سفر **حزقيال** على

وجه الخصوص. كما نبه دارسون آخرون إلى تقاطعات مضامين هذا السفر، وما عرض له بعض المفكرين الإغريق في وصفهم لأيونات العالم العلوي ، وللوسائط بين السماء والأرض، وكذا في وصفهم للذات البارئة أو Plerome. وفي هذا الإطار، ربط دارسون معاصرون بين هذا النص والميتولوجيا اليونانية، وسعو ا جاهدين إلى إقامة الصلة بينهما وبين سفر أخينوخ. وبينت أبحاث مقارنة انتماء هذا السفر إلى ما يعرف في اليهودية بنصوص **الهيخالوت**. مفرد : هيخال، أي هيكل، ومقام، وسماء، وفلك. وهي نصوص صيغ معظمها في فترة ممتدة من القرن 2 ق م إلى ق 5 م. لم يصل من هذه النصوص سوى شذرات متفرقة، يسمها الاختزال، تترك الانطباع لدى القارئ بأنها انتمت يوماً ما إلى مؤلفات ضخمة. وتصف هذه **الهيخالوت** التجارب الروحية لأصحاب رؤى ومعارج في اتصالهم بالملائكة، وتأملهم للعرش والألوهية. وهي التجارب والنصوص التي أثارت جدلاً حول طابعها التجسيمي المترسخ في العرفان. يذكر إلى جانب سفر **أخينوخ** من هذه النصوص سفر **شيعور قوما**، أو سفر **أبعاد الذات العظمى**، الذي يمثل بمضامينه أشد النصوص اليهودية إيغالاً في التجسيم والتجسيد. كما ينضاف إلى كتاب شيعور قوما المؤلف المعروف بسفر **يتصيرا** أو كتاب **المبادي والخلق** الذي يمثل وصفاً غنوصياً لبدء العالم وتكوينه(32).

هل يعكس سفر أخينوخ واقعاً ما ؟ أثير هذا السؤال، في إطار سؤال أعم، عن وجه العلاقة بين مؤلفات الرؤى والمعارج بالعصر الذي صيغت فيه، وعن صلة الرائين من أصحاب المعارج بالمجتمعات التي عاشوا في أكنافها ؟ ربط دارسو هذه النصوص بينها وبين شروط الزمان والفضاء. فقد كان أصحاب الرؤى والمعارج، يُسقطون ما يرغبون في رؤيته محققاً في واقعهم على مجتمع الملائكة، وبالتالي، ووفق وجهة النظر هاته، فإن نظام مملكة السماء الساري على كائنات العوالم العليا ليس إلا نتاجاً لتصور المجتمع في المخيال الديني، كنظام مأمول تحققه على الأرض لسريانه على المملكة السماوية . وقد دفع الباحث شارل موبسيك في تحليله للرؤى والمعارج في التصور الديني التوحيدي إلى أبعد

---

(32) الدكتور أحمد شحلان : **ابن رشد والفكر العبري الوسيط : فعل الثقافة العربية الإسلامية في الفكر العبري اليهودي**. مراكش 1999. الجزء الأول، ص. 26.

من ذلك [33]، معتبراً أن بعض سمات مجتمع الملائكة الموصوف في أسفار الرؤى وفي مقدمتها سفر أخينوخ، تعكس وضعية للمجتمع الشرقي الذي تجاذبته خلال القرون القليلة قبل وبعد الميلاد امبراطوريات قوية زعزعت البنى العميقة فيه. وما أسفار الرؤى و المعارج التي تنتمي لهذه الفترة سوى صدى لهذه التحولات. غير أن هذا الرأي قوبل ببعض التحفظ في دراسات أخرى تناولت الظاهرة نفسها. إذ تبين "أن ليس هناك من داع يدفع إلى الافتراض بأن يكون وصف العرش، أو هياكل السماء انعكاساً بسيطاً لواقع البلاط البيزنطي أو الساساني"[34]. واحتج هؤلاء بارتقاء البنية العميقة لهذا الأدب إلى زمن أبعد مما يحصره فيه الافتراض السابق. ولم يمنع هذا التحفظ، على الرغم من ذلك، في الاعتراف باستحالة التشكك في إسهام الشروط السياسية والاجتماعية على محرري هذه الآداب الرؤيوية.

ونحن نعرض بالدرس لنصوص الرؤى والمعارج، يلزم أن لا يغرب عن الذهن، في هذا السياق، ما نتج عن إعادة قراءة هذه النصوص وتأويل مضامينها، إذ بالإضافة إلى انبثاق آداب السحر وبعض الجوانب المتعلقة بالسيميا والتنجيم عنها[35]، فإن التأويل الأخلاقي – الصوفي لهذه النصوص أدى إلى ربط درجات الارتقاء وغاياته بسلم قيم وأخلاق تتأهل النفس بالسير في مدارجه لبلوغ مقامات تيسر لها رؤية الأسرار السماوية. وقد عبرت عن هذا الربط، منذ فترة مبكرة، إشارات مقتضبة وردت في التلمود[36]، ونصت عليه شذرات **الهيخالوت** الآنفة الذكر، والتي ترتبط أشد الارتباط برؤيا أخينوخ وحزقيال. نقرأ بصدد هذا الربط بين مقامات المعارج وسلم الأخلاق الروحي. قال الربي عقيبا للربي شمائيل : بارتقائي السماء الأولى صرت تقياً، وبلوغي السماء الثانية غدوت طاهراً. أما حين أدركت السماء الثالثة، فقد أصبحت صديقاً. وتبين لي في السماء الرابعة أنني صرت كاملاً. وأحاطت بي القداسة في السماء الخامسة ، في حين لهج لساني باسم القدوس في السماء السادسة أمام من حفظني من أذى الملائكة. وإذ بلغت

(33) - Charle Mopsik : “Hierarchie des anges et hierarchie sociale”. Rapport pour la table ronde n° 2 du congrès de l’Association des sciences politiques, année 1990 (Thélogie et politique).

(34) - G. Scholem ; “Les grands courants de la mystique juive”. P. 58.

(35) - Haim Zafrani “Kabbale, vie mystique et magie”. Ed. Maisonneuve et Larose, 1986. pp. 52-53. (Le temps D’Enoch,.. la sorcellerie).

(36) : 146 (أ).

السماء السابعة، تمالكت قواي الخائرة، وانتصبت مرتجفاً أمام المجد الإلهي أردد : المجد لك، المجد لمن شرفني، المجد لمن مقامه الأسمى في السماوات العلا"[37].

IV- أخينوخ في منظومة العرفان الإسلامية

لقد أشار الكتاب المسلمون إلى شخصية أخينوخ كما سبق القول، وطابقوا بينها وبين إدريس الوارد ذكره في القرآن الكريم. وتسعفنا قصص الأنبياء وكذا كتب التفسير والأخبار ومؤلفات التصوف الإسلامية في الإخبار عن التحول الذي أخضعت له هذه الشخصية لتتوافق المعطيات حول سيرتها مع الثوابت الإسلامية الكبرى. وأخينوخ شاهد دال على الحضور العرفاني المبكر في الفكر الإسلامي. ولم يتردد **القفطي**[38] **واليعقوبي**[39] **وابن أبي أصيبعة**[40] في مماهاة شخصية إدريس الوارد ذكرها في القرآن بهرمس إله الحكمة عند اليونان، وبشخصية اخينوخ. وانتبه إلى هذا الخلط أبو **العلا عفيفي**، وأرجعه إلى التطورات التي مر بها تاريخ هرمس إله الحكمة عند قدماء المصريين واليونان على يد وثني حران من جهة، والمسلمين واليهود من جهة أخرى . وإذا كان **أبو العلا عفيفي**[41] قد نص في معرض حديثه ذاك عن احتمال أن تكون الكتابات الهرمسية قد ترجمت من اليونانية إلى السريانية قبل القرن التاسع، فإنه أكد إخضاعها من طرف كتاب شرقيين إلى تغير عميق، مزجت في إطاره هذه الكتابات بأفكار يهودية وغير يهودية، وغدا فيها هرمس إله الحكمة اليوناني نبياً من أنبياء بني اسرائيل، وتحول في الكتابات العربية الإسلامية أخينوخ إلى إدريس، وطوبق بينه وبين إلياس، والخضر. يدل على ذلك ويؤكده وصف بعض المسلمين لهرمس الأكبر أي هرمس الهرامسة بنفس الأوصاف التي يوصف بها أخينوخ وإدريس.

---

(37) - G. Scholem ; "Les grands courants de la mystique juive". P. 92 (Note n° 136).

(38) **القفطي** : الجزء الأول. ص. 2.

(39) **اليعقوبي** : الجزء الأول.ص. 166.

(40) ابن أبي أصيبعة: الجزء الأول.ص. 16.

(41) ابو العلا عفيفي: **نصوص الحكم** دار الكاتب العربي. بيروت. 1980.ص. 257.

وقد نسب المفكرون إلى هذه الشخصية الحكمة، وحدد اليعقوبي وابن أبي أصيبعة والقفطي زمنها قبل الطوفان بمصر، ونسبوا إليها الكلام في الجواهر العلوية، وحركات الأفلاك. وإذا كانت شخصية أخينوخ اليهودية قد ارتقت للسماء لتُخلد، وتُحول إلى ملاك سماوي، فإن الروايات الإسلامية جعلت من أخينوخ شخصية تستدرج الملاك ليميتها، ثم يحييها. ثم تستدرجه لدخول الجنة، وترفض أن تخرج منها أبداً. وفي روايات أخرى يعرج أخينوخ – إدريس إلى السماوات، ويقبض ملاك الموت روحه في السماء الرابعة، أو السادسة. ونحن نعثر في الكتابات الفلسفية الإشراقية على صدى هذه الشخصية، وخاصة في مؤلفات ابن سينا، ومحي الدين بن عربي، ويحي شهاب الدين السهروردي. وقد شكل معراج أخينوخ وتجربته مرجعاً بارزاً للمتصوفة في وصفهم لتجاربهم الروحية، وفي ذكرهم لأسماء الملائكة، ونظم حيواتها، وكذا في بسطهم لأسرار العرش الإلهي، وأسرار السماوات التي ارتقوا مدارجها وسلكوا مقاماتها.

وقد لاحظ ج. فاجدا، في هذا السياق، كيف تمكن العرفان الإسلامي من إدماج شخصية أخينوخ أو إدريس، اعتماداً على مصادر صابئية وأخرى حرانية، ضمن جينيالوجيا هرمس الحكيم. وكيف نسبت إليها في هذا الإطار حكم وأمثال ومرويات هيأت لها مكانة رفيعة في التصوف الإسلامي الإشراقي. فقد عده محي الدين بن عربي نبي الفلاسفة. وخصص له ابن سبعين كتاباً لم يصلنا منه سوى العنوان[42]. كما عملت الأدبيات الدينية الشيعية على التوفيق بين سيرة أخينوخ ونظرية الغيبة الشيعية[43]، مفيدة في ذلك من دمج نصوص توراتية مختلفة، سواء تلك المتعلقة بأخينوخ نفسه، أو بايليا وإليشع.

نختم بنص دال، في هذا السياق، يدفعنا إلى طرح سؤال أشمل حول مرجعيات وصف المجتمع الملائكي في العرفان الإسلامي، وحول العناصر الهرمسية التي استقى منها المتصوفة الإشراقيون، على وجه الخصوص، مواد تصوراتهم

(42) ابن العماد الحنبلي : **شذرات الذهب** . القاهرة 1351هـ ج. 5. ص. 330.
حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. مطبعة المعارف التركية، 1941.
(43) ابن بابويه : "**إكمال الدين في إثبات الغيبة**". طهران 1884. ص ص. 75-80.

الغنوصية. جاء في **الفتوحات المكية** لمحي الدين بن عربي[44] : ولما جعل الله زمام هذه الأمور بأيدي هؤلاء الجماعة من الملائكة، وأقعد منهم من أقعد في برجه ومسكنه الذي فيه تخت ملكه، وأنزل من أنزل من الحجاب والنقباء إلى منازلهم في سماواتهم، وجعل في كل سماء ملائكة مسخرة تحت أيدي هؤلاء الولاة وجعل تسخيرهم على طبقات. فمنهم أهل العروج بالليل والنهار من الحق إلينا، ومنا إلى الحق في كل صباح ومساء ومايقولون إلا خيراً في حقنا ومنهم المستغفرون لمن في الأرض. ومنهم المستغفرون للمومنين لغلبة الغيرة الألهية عليهم كما غلبة الرحمة على المستغفرين لمن في الأرض. ومنهم الموكلون بالأرحام ومنهم الموكلون بالأمطار ولذلك قالوا : "وما منا إلاّ له مقام معلوم". وما من حادث يحدثه الله في العالم إلا وقد وكل بإجرائه ملائكة ولكن بأمر هؤلاء الولاة من الملائكة. كما منهم أيضاً الصافات والزاجرات والثاليات والمقسمات والمرسلات والناشرات والنازعات والناشطات والسابقات والسابحات والملقيات والمدبرات"...

(44) محي الدين بن عربي : **الفتوحات المكية**. دار صادر بيروت ج 1.ص. 296.